4

حكاية

القزم عند البقال

«عندما نتخلى عن الوهم نعرف حقيقة أنفسنا»

القــزم الأسطوري طوله حــوالي ثلاثة أقــدام، يرتدي قلنســوة مخروطية طويلة ويحرص على أن يبقى بعيدًا عن الأنظار، وبالفعل لم يره أحد. مع ذلك، كان الأطفال الدنماركيون يعتبرونه حقيقة لا شك فيها، فكل مزرعة لها قزمها، فإن أحسن صاحبها معاملته، عمَّها الخير. ولا يطلب القزم مقابل ذلك أكثر من طبق عصيدة ساخن (من الأرز المرشوش بالسكر والقرفة وفوقه قطعة كبيرة من الزبد) في ليلة عيد الميلاد من كل عام. ولكن على الأسرة ألا تحاول اختلاس النظر إليه، وإلا سيُجن جنونه وينتقم منهم.

وقزم حكايتنا مخلص لصاحب البيت، وبه فضول وشقاوة. وعندما ينتبه هذا المخلوق الصغير العملي إلى عالم الأفكار، ينبهنا نحن القراء إلى ضرورة إعادة النظر في حاجتنا إلى الملكية الشخصية، وإلى الشعر. حاجتنا إلى غذاء البطن وغذاء العقل معًا.

وبينما تقرأ الملخص التالي ـ أو الحكاية الكاملة إن شئت ـ أدعوك للتفكير في هذه الأسئلة: ما الذي ترى أن له قيمة في حياتك العملية داخل متجرك؟ ما الذي يعجبك في تلك المساحة الهادئة التي تبعث على التأمل في المخزن العلوي؟ هل تحرص على الاثنين؟

ملخص الحكاية

لم يكن الطالب يملك شيئاً. وكان البقال يملك البيت وكل ما فيه، ويمكن أن يقدم عصيدة عيد الميلاد، لذلك لازمه القزم.

ذات مساء أتى الطالب إلى البقال ليشتري جبناً، اكتفت زوجة البقال بإيماءة من رأسها كتحية مساء للطالب وهو يخرج من الدكان، كان يمكنها تحيته بأكثر من مجرد إيماءة برأسها، فقد كانت تتمتع بلسان ثرثار. لكن اهتمام الطالب انصرف إلى الورقة التي لفت بها قطعة الجبن، وكانت منزوعة من كتاب شعر قديم. عرض البقال أن يبيع الطالب ما تبقى من الكتاب، ودفع الطالب قطعة الجبن ثمنًا للكتاب الممزق. وقال الطالب إن تمزيق مثل هذا الكتاب حرام، وأضاف ساخرًا: «إن ما يعرفه البقال عن الشعر لا يزيد عما يعرفه البرميل الذي تلقى فيه الصحف القديمة». واعتبر القزم ذلك قولاً لا أدب فيه.

وفي الليل استعار القزم موهبة الثرثرة من زوجة البقال، وكان كل شيء تُبثّ هذه الموهبة فيه يكتسب قدرة زوجة البقال على التعبير عن نفسها. وقد بدأ بالبرميل وسأله: «هل أنت حقاً... لا تعرف ما الشعر؟» فقال البرميل: «بل أعرف طبعاً، إنه الشيء الذي يكتب في ذيل صفحة الجريدة». كان البرميل يعتقد أن بالجريدة من الشعر أكثر مما يظن الطالب. وكان ذلك رأي كل الأشياء الأخرى في الدكان، ولابد من احترام ما تتفق عليه الأغلبية.

بعدها صعد القزم إلى غرفة الطالب ليلقنه درسًا. ولكنه حين اختلس النظر من ثقب الباب، وجد الطالب يقرأ في الكتاب الممزق، ووجد الغرفة مليئة بصور مدهشة وأنغام جميلة. قال القزم: «هذا شيء رائع! أظن أنني سأبقى مع الطالب». لكنه تذكر أن الطالب لا يستطيع توفير العصيدة ، فعاد ونزل إلى البقال.

لكن القزم لم يعد قانعًا بما في الدكان من حكمة وذكاء، فكان كل ليلة يسترق النظر من باب غرفة الطالب ويملأ نفسه بإحساس الجمال. وعندما ينطفئ النور، كان يشعر بالبرد ويعود سريعًا إلى الدكان. وعندما حل عيد الميلاد وتلقى القزم عصيدته، قال القزم في نفسه: إن البقال خير الناس.

وفي إحدى الليالي، نشب حريق خطير في الشارع وجرى كل الناس لينقذوا أغلى ما عندهم؛ أخذت الزوجة قرطيها، وأخذ البقال صكوكه، وأسرع القزم إلى العلية، فوجد الطالب يقف إلى جوار النافذة يشاهد النيران على الجانب الآخر من الشارع، خطف القزم الكتاب واندفع إلى الخارج نحو سطح البيت. تبين للقزم حبه الحقيقي؛ إذ عرف الآن ما يحبه حقاً. لكن عندما تم إطفاء الحريق، هدأ القزم وفكر وقال في نفسه: «لا أستطيع أن أترك البقال لأجل العصيدة»؛ لذلك قرر أن يكون مع الاثنين: الطالب والبقال.

هل تعلم...؟

هل كنت تعلم... يشترك قزم حكايتنا في بعض الصفات مع غيره من المخلوقات الخرافية الصغيرة الأخرى مثل الجنية المشاكسة، البيكسي، والقزم «نوم» حارس كنوز الأرض، والهوبغوبلين، الغول المؤذي أو البعبع، لكنه لا يوجد إلا في الأدب الشعبي الاسكندينافي. ويعتقد أن هذا القزم يقيم في المزارع، فإذا رضي عن أهل مزرعة ما باركها بالذرية والصحة، والمحاصيل الوفيرة والغنى (تماماً مثل آلهة الموقد في الديانات الوثنية الأخرى). وهكذا كان يقال عن المزارع الثري إن قزمه راضٍ عنه. وكان القزم في المقابل ينتظر أن يعامل باحترام وأن تقدم له هدايا من الطعام على نحو منتظم.

كان القزم يصور على هيئة مزارع من القرون الوسطى، له لحية رمادية وملابس رمادية وقلنسوة حمراء مخروطية. وهو مسن قصير القامة، ويقال إنه يدخن الغليون ويحب لعب الورق. وأكبر عون يقدمه القزم يخص الحيوانات، لكنه أحياناً يختصر الجهد لتحقيق الرخاء فيسرق من المزارع المجاورة. ولأنه عصبي المزاج، فإنه قد يغضب لأنفه الأخطاء. فإذا حدث هذا، تمرض الحيوانات، ويصير الحليب حامضاً، وتذبل المحاصيل. ولا يهدأ القزم حتى يرد الإساءة بمثلها.

ترد أول إشارة لهذا النوع من الأقزام في عام 1981 في أيسلندا، عندما تم طرد أحدها بتلاوة الصلوات ورش الماء

المقدس. ولم يزل كهنة الكنيسة يتعاملون مع «سكان المزارع» من الأقزام حتى القرنين السادس عشر والسابع عشر. فيبدو أن الناس، بالرغم من أنهم مسيحيون ويتلون الصلوات، فقد كانوا حريصين على رعاية قزمهم الخرافي... من باب التأمين والضمان عسى أن...، في القرن التاسع عشر، طرأ على هذا النوع من الأقزام تحول كبير، بدأ عندما قامت الجمعية الفنية الدنماركية في روما، وهي جماعة كان أندرسون يعرفها جيداً بسبب تعدد سفره إلى إيطاليا، باستخدام أشكال مقصوصة من الورق على صورة قزم للتزين في ليلة عيد الميلاد. ولم تمض بضع سنوات حتى شاعت هذه الصورة الجديدة التي يظهر القزم فيها أقصر وأسمن وألطف وأرق؛ بل وصار له زوجة. كما أخرجوه من مخزن الغلال وأسكنوه حجرات المعيشة الخاصة بالطبقة المتوسطة، حتى أصبح رمزًا لعيد الميلاد يشبه بابا نويل.

الحكاية الكلاسيكية

كان أحد الطلاب يسكن العليّة ولم يكن يملك شيئاً. وكان يسكن الطابق الأرضي بقال يملك البيت وكل ما فيه. وقد اختار القزم أن يكون مع البقال، وفي كل ليلة عيد ميلاد، كان يحصل على طبق كبير من العصيدة عليها قطعة ضخمة من الزبدة. وكان البقال قادراً على توفير ذلك للقزم؛ فبقي القزم في دكان البقال الذي تعلم فيه أشياء كثيرة. وفي إحدى الأمسيات دخل الطالب من الباب ليشتري شموعًا وجبناً، فلم يكن لديه من يأتي له بما يحتاج ودفع ثمنه. وأومأ البقال وزوجته بتحية المساء، على الرغم من أن الزوجة كان يمكنها أن تحييه بأكثر من مجرد إيماءة رأس؛ فقد كانت تتمتع بلسان ثرثار. أومأ الطالب ردًا على تحيتهما ثم وقف مكانه. إذ راح يقرأ في الورقة التي تلف الجبن، كانت منزوعة من كتاب قديم ما كان ينبغي أبدًا أن يمزق، كتاب قديم يمتلئ شعرًا.

قال البقال: «لازال عندي جزء كبير من الكتاب. فقد أخذته من عجوز ببعض حبات البن، فإن أعطيتني ثماني شلنات أعطيتك ما تبقى منه».

قال الطالب: «أشكرك، أعطني الكتاب وخذ الجبن، سآكل خبزًا وزبدًا دون شيء آخر. فحرام أن يمزق الكتاب كله هكذا. إنك رجل مهم، رجل عملي، لكنك لا تفهم الشعر إلا كما يفهمه ذلك البرميل».

كان ما قاله الطالب خالياً من الأدب، ولاسيما إهانته للبرميل. لكن البقال ضحك، وضحك الطالب، لأن ما قاله كان على سبيل الدعابة. لكن القزم ساءه أن يجرؤ أحد على توجيه كلام كهذا للبقال، الرجل الذي يملك البيت ويبيع أفضل أنواع الزبدة.

وفي الليل، عندما أغلق الدكان وذهب كلٌّ إلى فراشه إلا الطالب، دخل القزم على الزوجة واستعار منها موهبة الثرثرة، إذ لم تكن تستعملها في أثناء النوم. وكان كلما وضعها على أي شيء في الغرفة، صار له صوت وتكلم معبرًا عن أفكاره بطلاقة كما تفعل زوجة البقال تماماً، لكن كان كل شيء يتكلم بعد أن ينتهي الآخر، وكان ذلك من حسن الحظ، وإلا تكلموا جميعاً في وقت واحد.

كان البرميل أول من وضع القزم عليه موهبة الثرثرة، وكان مملوءًا بالجرائد القديمة. سأله القزم: «هل صحيح أنك لا تعرف ما الشعر؟»

قال البرميل: «إنه شيء في ذيل الصحيفة، وغالبًا ما يقص منها. وأظن أن ما عندي من الشعر أكثر مما عند الطالب، وما أنا إلا برميل بسيط مقارنةً بالبقال».

ثم وضع القزم موهبة الثرثرة على مطحنة البن، التي بدأت بالكلام فورًا. ثم على مكيال الزبدة ثم درج النقود، واتفقوا جميعًا على رأي البرميل. وما تتفق عليه الأغلبية ينبغي احترامه.

«والآن ينبغي أن يفهم الطالب هذا». قال القزم ذلك وهو يسرع بالصعود على درجات سلم المطبخ إلى العلية التي يعيش فيها الطالب. كان الضوء يملأ المكان، اختلس القزم النظر من ثقب الباب ورأى

الطالب يقرأ في الكتاب الممزق الذي أتى به من عند البقال. كم كان النور ساطعًا من داخل الغرفة! كان شعاع من النور يصدر عن الكتاب وتحول الشعاع إلى جذع شجرة ثم إلى شجرة عظيمة نمت حتى صارت دوحة باسقة تنشر فروعها حتى ظللت الطالب. كانت كل ورقة فيها نضرة، وكل زهرة رأس فتاة رائعة الحسن، بعضهن ذوات عيون سود لامعة، وبعضهن ذوات عيون زرق صافية تخلب اللب، و كل ثمرة نجمة لامعة. وكان هواء الغرفة يعبق بأحلى الأغاني.

لم يكن القزم الصغير قد رأى أو أحس بمثل هذا الجمال بل لم يكن يتصوره، فظل واقفاً على أطراف أصابعه يتابع النظر من ثقب الباب حتى انطفأ الضوء في الغرفة. لابد أن الطالب قد أطفأ السراج وأوى إلى فراشه. لكن القزم الضئيل ظل في مكانه يستمع إلى الأغنية التي كانت لا تزال تتردد في رقة ونعومة، وكأنها تهدهد الطالب الراقد على السرير حتى يستغرق في النوم.

قال القزم: «هذا شيء مدهش، لم أكن أتوقعه قط! أظن أنني سأبقى مع الطالب». لكنه فكر في الأمر بروية وقال وهو يطلق زفرة أسى: «لكن الطالب لن يوفر العصيدة». وانصرف المخلوق الصغير عائدًا إلى حيث البقال. كان ذلك هو القرار السليم. في ذلك الوقت كاد البرميل يستنفد كل موهبة الثرثرة لدى زوجة البقال، فقد ثرثر بكل ما كان مكتوبًا على أحد جوانب الصحف المخزنة فيه، وكان على وشك أن يتحول إلى جانب آخر، لكن القزم عاد وأخذ منه اللسان

الثرثار ورده للزوجة. لكن منذ تلك اللحظة أصبح كل ما في المخزن، من درج النقود حتى خشب الوقود، ينصت لآراء البرميل؛ فقد رفعوا مكانته ومنحوه ثقتهم إلى حد بعيد. حتى عندما قرأ البقال «المقالات النقدية عن الفن والمسرح» بصوتٍ عالٍ من جريدته المسائية، ظنوا جميعًا أن الصوت يأتي من البرميل.

لكن القزم الضئيل لم يعد بإمكانه أن يجلس ويستمع بهدوء لكل ما يقال من كلام الحكمة و الفطنة في الدكان. فما إن يظهر الضوء في العلية، حتى تجتذبه أشعته كأنها حبال متينة، فيجد نفسه مشدودًا نحو العلية ينظر من ثقب بابها. كان يتملكه إحساس بالرهبة، كالذي يتملكنا عندما نكون وسط أمواج المحيط العاتية و في أوج العاصفة حين يجتاحنا الشعور بوجود الله؛ وقد انفجر في البكاء وهو لا يدري ما الذي يبكيه، لقد كانت تلك دموع الفرح. كم سيكون الجلوس مع الطالب تحت تلك الشجرة رائعاً، ولكن لأن ذلك غير متاحٍ؛ فقد قنع بالنظر إليه من ثقب الباب. لم يزل القزم واقفًا في مكانه في الممر البارد، ورياح الخريف تهب من الباب المسحور (باب أرضية سطح البيت). كان الجو باردًا؛ بل شديد البرودة، لكن القزم الضئيل لم يلحظ ذلك حتى انطفأ الضوء في العلية، وخَفُت صوت الموسيقى حتى غاب في صوت الرياح. كاد القزم يتجمد من البرد، فعاد فورًا إلى ركنه الدافئ المريح. وعندما جاءت عصيدة عيد الميلاد وفوقها قطعة الزبدة الكبيرة، قال القزم إن البقال أهم الناس عنده.

وذات مرة، في وسط الليل، استيقظ القزم على أصوات جلبة شديدة؛ كان الناس في الخارج يتصايحون ويطرقون على شيش النافذة، وكان الحارس الليلي يطلق صفارته. فقد شب حريق كبير في الشارع كله. لم يكن القزم يدري أكان الحريق في البيت هنا أم في بيت الجيران؟ أين الحريق؟ وإلى أي حد وصل؟ كانت زوجة البقال مضطربة للغاية حتى إنها خلعت قرطيها ووضعتهما في جيبها، حتى تضمن إنقاذ شيء مما تمتلك. وجرى البقال ليأخذ صكوكه، وجرت الخادمة لتأخذ وشاحها الحريري، الذي ادخرت من أموالها حتى تستطيع شراءه. كان كل واحد يجري لينقذ أغلى ما لديه، وكذلك فعل القزم الصغير.

وبقفزتين سريعتين بلغ القزم أعلى الدرج ودخل غرفة الطالب الذي كان يقف في هدوء بجانب النافذة المفتوحة، ويتابع منها الحريق الذي نشب في الساحة في الجهة المقابلة من الشارع. جذب القزم الصغير الكتاب المدهش من فوق الطاولة ووضعه داخل قلنسوته الحمراء، وأطبق عليه بيديه الاثنتين، وهكذا أنقذ أغلى كنوز البيت. ثم اندفع خارجًا وصعد إلى سطح البيت حتى وصل إلى أعلى المدخنة. وهناك جلس و قد انعكست عليه أضواء البيت المحترق في الجهة المقابلة، وكانت يداه لا تزالان تطبقان بقوة على قلنسوته الحمراء حيث وضع الكنز. في تلك اللحظة عرف القزم إلى أين يميل قلبه، ولأي شخص ينتمي. ولكن بعد أن انطفأ الحريق، عاد إلى نفسه، وهدأ روعه وقال:

«سأوزع نفسي بين الاثنين! فأنا لا أستطيع الاستغناء عن البقال الذي يقدم لي العصيدة».

كان ذلك القرار بشريًا بكل ما تعنيه الكلمة! فكلنا نذهب إلى البقال من أجل العصيدة.

تطبيقات الحكاية

يستمتع القزم بما يجري في دكان البقال من نشاط، فالمكان يمتلئ بحركة التجارة وتبادل الأخبار والضوضاء. وأغلب أيام حياتنا تشبه الحياة في ذلك الدكان؛ إذ تملؤها الأحاديث والإثارة. يبدأ كل صباح بالحديث عن آخر الأخبار وآخر المعارك، وأخبار الفساد والتجارة والرياضة. وفوق ذلك كله، تخيّم صور الإعلانات على كل ما نريد أن نشاهده أو نرتديه أو نفكر فيه أو نشعر به أو نفعله.

هذا بالإضافة إلى أن كل من حولنا يطالبون بنصيب من وقتنا، وكثيرًا ما تتعارض مطالبهم. فلابد أن نشتري بيتاً في إحدى الضواحي، ونحضر كل المباريات التي يشترك فيها الأولاد، كما ينبغي أن نكون جادين في أعمالنا، وأن نكون جزءاً من فريق عمل نصل به إلى قمة الأداء، ولابد أن نتحلى بالصراحة والود، وأن نكون بنّائين من قمة الرأس إلى أخمص القدمين.

وسط هذه الأصوات المتعددة العالية التي تتجاذب اهتمامنا يغيب صوتنا فلا نكاد نسمعه. ولن نسمعه إلا إذا حوّلنا اهتمامنا عن أصوات الآخرين وأنصتنا إلى الصوت الآتي من داخلنا.

تتيح لنا قصة القزم فرصة للتفكير في أسلوب حياتنا اللاهث وراء الاحتياجات المادية، والمتطلع إلى الحياة المثالية في آن واحد. فهل تتكامل النزعتان أم تتعارضان؟ وهل يمكن أن يدعم كل منهما الآخر و يثريه.

الحياة النشطة

«كان يسكن الطابق الأرضي بقال يملك البيت وكل ما فيه، واختار القزم أن يكون مع البقال»

لا ينطق الصوت العملي الموجود داخل رؤوسنا بكلام أجوف، فهو يطالبنا بأن نحصّل تعليمًا جيدًا، وأن نحصل على وظيفة جيدة ونحافظ عليها، وأن نحقق مستوى معيشة جيدًا، وأن نستمتع بالحياة الطيبة، هذا كل ما في الأمر؛ فالحياة ليست معقدة إذا استطعت أن تسيطر على فضولك الذي يشبه فضول القزم في حكايتنا.

وكالبقال تمامًا، يجد كثير منا حياته في حالة الانشغال الدائم «داخل الدكان». وأنا شخصيًا أعشق الجلبة التي تحدثها شركة في حالة نمو وتحديث، وأعشق نبض مدينة نيويورك السريع، وهي المدينة التي تجسد فكرة السوق المفتوح. فقد صار الدكان الكوكبي مفتوحًا طوال اليوم وكل أيام الأسبوع (24/7)، ولا يفصلنا عن الصفقة التالية ولا عن آخر الأخبار سوى ضغطة بسيطة على فأرة الحاسوب.

يستلزم التأهل لنزول ملعب العمل الكوكبي تعليمًا جيدًا، وتحصيلاً لمقررات تتلوها امتحانات. بعدها نختار شركة ذات سمعة طيبة نتعلم فيها المهارات الصحيحة ثم نتوجه لنصيب الهدف. وحتى يحدث ذلك لابد أن نغلف أنفسنا بالغلاف المناسب الذي يحمل العلامة الصحيحة، ونركب السيارة الصحيحة، ونسكن الحي الصحيح، وندخل أولادنا المدارس الصحيحة. وهكذا يبدو مسار الحياة مستقيماً ويبدو أننا نتحكم

فيه. ولكن، هل نحن نتحكم فيه أم أننا نتوافق معه فحسب؟ هل الحقيقة أننا نعيش بمبدأ الدكان: «ما تتفق عليه الأغلبية لابد أن يحترم؟»

عندما أسترجع الماضي يدهشني عدد الاختيارات التقليدية في حياتي. كان لابد أن ألاحظ أن حياتي تتخذ مسار حياة والدي وأقراني. فهل كنت أتخذ قرارات حرة فعلاً أم كنت أضبط نفسي على شروط ضبط لبرنامج معد سلفاً؟ مثال ذلك: إنني كنت منذ سنوات أشغل وظيفة مرموقة، كنت في حالة صعود وانطلاق، وانعكس نجاحي في صورة مقتنيات وممتلكات. وفجأة واجهت الصناعة التي يعمل بها زوجي حالة هبوط، ودفعت شركته تعويضات تسريح لموظفيها. كان زوجي قد فكر بالفعل في العودة للدراسة، فكانت هذه فرصة عظيمة للتغيير. وعندما قبلته كلية الحقوق في هارفارد، اعتبرنا هذا حدثاً يستحق أن ننتقل من أجله. فبعنا بيوتنا وسياراتنا وغسالاتنا ومجففاتنا وثلاجاتنا التي اشتريناها في كاليفورنيا، وانتقلنا من غرب البلاد إلى شرقها لنعيش في "عليّة" في كامبريدج بولاية ماساتشوستس.

وعلى غير المتوقع، أحببت حياتنا الجديدة. لم يكن لدينا حديقة أتعهدها ولا بيت ولا حمام سباحة يحتاج إلى تنظيف، ولا سيارات تحتاج إلى صيانة. وعندما كان أي شيء يحتاج إلى التصليح في شقتنا الصغيرة، كنا نستدعي مشرف الصيانة. شعرت أنني قد تحررت. وكم أدهشني أن أكتشف أن ممتلكاتنا أصبحت تملك أغلب أوقاتنا، بل إنني اكتشفت أنه حتى حلم امتلاك بيت لم يكن حلمي الشخصي.

كان ما اكتشفناه أساساً لحياة الطلاب التي عشناها بعد ذلك. وكلما شرعنا في الدخول في التزام مالي كنا نسأل سؤالاً مثل «هل نعيش بالقرب من سنترال بارك» (المنتزه الرئيس في المدينة) ـ وكنت أريد ذلك بشدة ـ أو نستمتع بالحرية المالية. وكانت الحرية تكسب كل مرة. نتيجة لذلك توفر لي ولزوجي الوقت للمشروعات الإبداعية، وهي شغفه بالموسيقى وتفرغي لهذا الكتاب. صحيح أن مستوى معيشتنا لا يرنو إليه أحد، لكن نوعية حياتنا رائعة.

المشكلة عند عدد كبير منا ليست في أننا نريد حياة طيبة؛ بل في أننا نقنع أنفسنا بأن تصورنا للحياة الطيبة يتطابق مع التصور الشائع للحياة الصحيحة. يحدث هذا عندما لا نقرأ إلا المنشورات التي تراعي مصالحنا ولا نشاهد إلا البرامج التي تؤكد ما لدينا من آراء. وفي النهاية، يصير الشعر مجرد ورق تلف به بضاعة وتظن المعلومات «حكمة» ولا نقول إلا الأشياء التي «يتفق عليها الغالبية».

وأنا على يقين من أن كثيرًا من أخطاء العمل الفاضحة والسلوكيات المشينة التي تحدث في مكان العمل يمكن منعها إذا تعاون «البقالون» مع الطلاب الذين يعيشون بيننا، بالإضافة إلى الإنصات لنصائح كبار رجال الأعمال المحنكين. لابد أن نخصص من وقتنا قدرًا نستكشف فيه المعضلات الأخلاقية في حياتنا اليومية، بكل معانيها، وهكذا لن تقتصر المناقشة على أعلى مستوى كفاءة يمكن تحقيقه بل على أقوم السبل الأخلاقية التي يمكن اتباعها.

حياة الفكر

«كان الطالب يسكن العلية، ولم يكن يملك شيئاً»

يفكر القزم بطريقة عملية لذلك ارتبط بالبقال، الرجل صاحب الأملاك. أما الطالب فيبدو رقيق الحال، لكن مع فقره يظهر وكأنه لديه كل ما يحتاج. وعندما يبادل الكتاب الممزق بالجبن، ليكتفي بالخبز والزبدة دون شيء آخر، يبدو سعيداً بهذه المقايضة. ولأنه لا يهتم بالمال، يتوفر له الوقت للتفكير والغوص في أفكار عميقة واستكشاف المثل الإنسانية العليا، والتفكر في معنى الحياة.

عندما يصعد القزم إلى العلية، وهو عازم على تلقين الطالب درساً، فإنه يقف مشدوهًا أمام عالم الطالب المدهش. يجتاحه شعور بالسمو لا يجد كلمات تصفه. فما الذي يمكن أن يحدثه هذا الشعور من أثرٍ في حياة هذا المخلوق الصغير العملي؟ وما الذي أثّر في نفس القزم؟ هل هي قوة الصدق؟ أم الشجاعة؟ أم الحب؟ أم الجمال؟ أم حركته أم أفكار الخلود واللانهائية؟ هل تأثر بالأفكار الداعية إلى مُثل الحرية والمساواة والعدل للجميع؟، تلك الأفكار «غير العملية» التي أحدثت التحولات في الأمم القديمة، ومهدت الطريق لميلاد أمم جديدة؟

وبالرغم من أن الاكتشاف اجتاح القزم، فما إن ذهب الضوء وانمحت الرؤية، حتى صدمه الواقع. وقد يمنحنا أسلوب الحياة المثالي الحلم والإلهام، إلاّ إنه لا يوفر سقفاً فوق الرؤوس. مع ذلك ليست الحياة كلها سعياً وراء اكتساب المزيد من المهارات وإنجاز قوائم لا تنتهي من المهام، أليس كذلك؟

لا تقتصر نقاط الضعف على البقال، بل للطلاب أيضًا نقاط ضعف، وصفة الادعاء، ادعاء التقوى الكاذبة، هي الأقرب إليهم. يظهر ذلك في قول الطالب «حرام تمزيق الكتاب هكذا». توحي كلمة «حرام» بصفة تنزيه الذات عن الخطأ التي تلازم كثيرين من فئة المتعلمين منذ قرون، عندما يتعاملون مع عامة الناس، فهذا الاتجاه يقوم على ادعاء أن غذاء العقل أسمى من تقديم الطعام إلى الناس.

بالإضافة إلى أن موقف الطلاب تجاه العامة قد يتصف بالتكبر والتعالي، فإنهم كذلك عرضة للتقوقع داخل عالم من الأفكار والنظريات، ينأى بهم عن العالم الحقيقي. صحيح أن العلية بها الكثير مما قد يحتاج البقال تعلمه، لكن الطالب أيضًا يمكن أن يتعلم أشياء مهمة لو أنه قضى بعض وقته في الدور الأرضي لدى البقال.

لدى كثير منا - نحن المتخصصين في التغيير المؤسسي التنظيمي والموارد البشرية وإعداد القادة - إيمان عميق بالبشر وإمكاناتهم. ولكن أبراهام ماسلو يقول في كتابه «ماسلو في الإدارة»: «إننا كثيرًا ما نغالي في الاعتداد بأفكارنا والالتزام أو الإيمان بها». وينصح ماسلو أن نمضي وقتاً أطول في الدكان، حيث يمكن أن نختبر نظرياتنا في واقع الأهداف الصلبة، والميزانيات الشحيحة، ومواعيد التسليم النهائية القاسية.

كذلك فإن الأفكار الفلسفية التي تتجاوز الزمن تكتسب الجدوى والمعنى عندما نستخدمها في علاج مشكلات مكان العمل مثل التنوع والاستعانة بعاملين من خارج البلاد، أو مرتبات التنفيذيين، وهي

مسائل يمكن أن يساعدنا الفهم العميق على اتخاذ قرارات أفضل بشأنها. وهذا هو أساس إقامة ندوات معهد آسبن، حيث يستخدم قادة من نواحي الحياة كافة؛ أعمال كبار المفكرين في علاج التحديات المجتمعية والعملية التجارية المزمنة.

التصرف المبني على التفكير

«سأوزع نفسي بين الاثنين، فأنا لا أستطيع الاستغناء عن البقال الذي يقدم لي العصيدة». «كان هذا القرار بشرياً بكل ما تعنيه الكلمة».

يستمتع البقال بالحياة في الدكان، بدخول الناس عنده وخروجهم، بالجدل حول الأسعار، بالكيل والوزن، وبالمال. هذه هي الحياة النشطة. وعند ترتيب الأولويات تأتي الممتلكات أولاً؛ لذلك فإننا نجري لننقذ الأقراط والصكوك عندما يشب حريق.

بخلاف البقال، يفضل الطالب حياة العزلة في عليته بصحبة عقول عظام المفكرين. هذه هي حياة الفكر. مع ذلك، قد تبتعد هذه الحياة كثيرًا عن «العالم الحقيقي». وعندما يهدد الحريق الشارع الذي يسكنه ـ مثلاً ـ يقف الطالب في هدوء يشاهد الحريق ـ فهو مجرد مراقب.

ينتمي القزم الصغير إلى العالَمين . كان في أول الأمر سعيداً في الدكان، ولكن عندما اتسع عقله بالأفكار العظيمة، لم يعد قانعًا به. بل يريد أسباب راحته المادية ولكن النور الصادر من العلية يجذبه. وينسى القزم في أثناء الحريق أمر العصيدة. بل إنه يهرع إلى العلية ويودع الكتاب قلنسوته المخروطية الحمراء، ثم يندفع إلى السطح ومنه إلى

المدخنة، يجلس فوقها قابضاً على قلنسوته بكلتا يديه، ويعرف ماذا يهوى قلبه. لكن عندما ينطفئ الحريق ويهدأ روع القزم، يتذكر قدر حبه للعصيدة. ومن هذا المكان الذي يعلو عن الدكان والعلية معاً، يتضح كل شيء. ويدرك أنه ليس مضطرًا للاختيار بين الاثنين. بل يمكنه الجمع بينهما.

تتصف نهاية الحكاية الأصلية، المكتوبة بالدنماركية، بقدر من الغموض. إذ يستخدم هـ. ك. أندرسون مفردة «ديلي»، ويمكن ترجمتها على وجهين، يشير الأول إلى أن القزم «سيقسم» نفسه بين العالمين، ويشير الثاني إلى أنه «سيجمع» بينهما، وهذه نقطة لها أهميتها. فالترجمة الأولى، وهي الأكثر شيوعًا ترى الواقعين متصارعين، أما الثانية، التي أفضلها، فتسمح بالتكامل إذ تراه ممكناً.

يكتب رجل التربية «باركر بالمر» عن التعارض بين التأمل والفعل في كتابه «الحياة النشطة»، ويشير إلى أن الناس يتعاملون مع التناقضات الصريحة بطريقتين مختلفتين؛ فالأغلب أننا نبدأ بالحفاظ على المسافة الفاصلة بينهما ثم بعد ذلك ننتقل بينهما، والهدف المنشود هو البحث عن سبلٍ للتكامل بينهما. ويصك بالمر عبارة «التأمل والفعل» كوحدة لغوية واحدة، ويعني بذلك أن الواحد منهما لا وجود له بدون الآخر، فقد كان الرجل من دعاة التكامل.

أما اعتبار التأمل والفعل ضدين، فيعني إعلان الولاء لأحدهما في حرب حتمية. فإذا أظهرنا تحالفنا مع طرف ضد الآخر فسنسهم

بذلك في تفاقم المشكلة؛ لأننا نقلل من شأن حلفاء الطرف الآخر فنصفهم بأنهم «لا جدوى منهم» أو أنهم «يعيشون في أبراج عاجية» أو أنهم «جشعون مستغلون أنانيون». كان الطالب والبقال في أول الحكاية يعيشان في عالمين منفصلين، وقد اختار القزم أن يعيش في أحدهما فقط. كان البقال هو الرابح لأنه صاحب البيت ولأنه يبيع أفخر أنواع الزبدة، ولم يكن الطالب يملك شيئاً؛ لذلك كان عليه أن يلزم حدوده. وعندما يلقي الطالب نكتة تمس البقال، ينزعج القزم انزعاجاً شديداً، ويعزم على أن يلقن الطالب درساً، ولكن المدهش أن الدرس يتعلمه القزم لأنه يفتح عينيه على قيمة العالمين كليهما.

بدلاً من اختيار أحد الضدين المزعومين واحتقار الآخر، لماذا لا نرى فضائل الاثنين؟ يمكننا، مثلاً، أن نقسم أنفسنا بينهما، فنعطي أغلب أيام الأسبوع للأمور العملية، ونخصص أيام الجمع للتفكر، أو أن نهتم بعمل مهم عدة أشهر ثم نقوم برحلة لصيد السمك أو السياحة الخفيفة. وهذا ما يفعله القزم عندما يقضي النهار في الدكان الدافئ والمساء في العلية. فكلا المكانين مهم، لكنهما لا يتماسان.

ولكن ماذا لو كانت الممتلكات المادية والشعر يكمل أحدهما الآخر، شطرين في كلٍ أكبر. ساعتها سيكمل كل شطر منهما الآخر ويثريه. وهنا سيولد التوتر حلولاً خلاقة بدلاً من أن يخلق تمزقاً بين الناس. توحي جملة «سأجمع بينهما» بأن القزم يقبل التوتر، فإدراك حاجته للعصيدة لا يجعله يصدم في نفسه، كما أنه لا يتعجل حلاً غير ناضج. فهو يقبل أن الاثنين جزء من خبرته الحياتية، ولابد أن يجد طريقة تجعله يحتفظ بهما معاً. وفي ذلك واقعية تثري الحياة.

كانت ابنة أخي، ذات السنوات الست، بهذا القدر من الشفافية في مراجعة دوافعها، عندما سألتني منذ عدة شهور لماذا أنا نباتية. قالت زوجة أخي رداً عليها «لأن ميتي يسوؤها قتل الحيوان». ففكرت الطفلة برهة في الأمر بينما كانت تمضغ قطعة من لحم الدجاج، ثم نظرت إليّ وسألتني بجدية شديدة: «وأنا أيضاً أكره قتل الحيوانات... لكنني أحب لحم الدجاج فعلاً». سرني ردها، لأنها قبلت التناقض، وكانت أمينة أمانة قاطعة. فإن التعايش مع التوتر، بدلاً من فرض جانب من القضية عليها، سيمكنها من الوصول إلى إجابة خاصة بها وأمامها الوقت الكافي لذلك.

قد نمر، مثل القزم، بتجربة نفتح فيها عيوننا على حياة تتجاوز الحياة المادية، هذه التجربة قد تكون نتيجة مرض خطير، أو مأساة نعجز عن فهمها، أو آلية عمل تحدث في حياتنا نشعر فيها أننا سقطنا من فوق صخور عالية أو مشينا فوق جمرات حارقة، فتحدث تحولاً كبيرًا في حياتنا. على أثر تجربة كهذه تضيء كل الأشياء وتتضح لمدة قصيرة من الزمن؛ فنعرف أين ننتمي، ونشعر أننا حسمنا أمرنا. ولكن – في أغلب الأحيان – عندما يخف أثر التجربة، ويخفت وهجها، نعود إلى سلوكياتنا القديمة، ونجلد أنفسنا لقلة التزامنا.

والسؤال هو: لماذا نفرض على أنفسنا اختياراً فورياً بين مثل أعلى مصطبغ بالرومانسية وأساليبنا المعتادة في الحياة؟ الأفضل هو التعايش مع حالة من التوتر لمدة أطول. صحيح أن هذا أمر غير مريح

لكنه يتيح مساحة إبداع مدهشة؛ فالحياة مع هذا الصراع الظاهر تمكننا من إيجاد أوجه يستفيد كل جانب فيه من الآخر، وهذا يمهد للوصول إلى حل خاص بنا يجمع الواقعي مع المثالي.

ومن أشد الناس تأثيرًا في المجتمع من يشعر بالانتماء لدكان البقال ولعلية الطالب في آن واحد. من هؤلاء بيتر دراكر، وهو الذي أحدث عدداً من التطورات العملية في مجال الإدارة في القرن العشرين. يقول الرجل إنه في حالة تعلم دائم. ومنذ أن كان في أوائل الثلاثينيات من عمره، كان دراكر يتنقل بين المجالات (مثل العلاقات الدولية والقانون وتاريخ المؤسسات الاجتماعية والفن الياباني) فكان يدرس في كل مجال دراسة مكثفة لمدة ثلاثة أو أربعة أعوام. هذه الدراسات أفادت حياته العملية وجعلته واحداً من أعمق مفكري الإدارة بصيرة في عصرنا. و دراكر نفسه هو تجسيد للفكرة القائلة بأن النظرية الجيدة هي أكثر الأشياء عملية.

يحتاج كل منا لأن يعرف أي مرحلة من النمو قد بلغ. فهل ترى الحياة المثالية منفصلة عن نمط حياتك النشيط المحمل بقوائم الالتزامات؟ هل تستهلك نفسك في العالم الحقيقي، وتستخدم العالم المثالي لتتعافى من ذلك الإرهاق؟ أي المثل العليا التي تتجاوز الزمن تحرك مشاعرك؟ هل تسمح للأفكار التي تتحدى الزمن بأن تحدد اختياراتك؟ كلما اعتمدت على العملي والمثالي معاً؛ زاد احتمال وصولك إلى حلول خاصة بك. وكلما دمجت الاثنين؛ ازددت حكمة.

نقاط تستحق التفكير

ـ متى استخدمت مبادئ أخلاقية لاتخاذ قرارات عملية؟

ـ من الذين تعدهم ناجحين عملياً وأصحاب عقول وفكر؟

نقاط تناقشها مع زملائك

ـ ما الذي يتفق عليه الأغلبية في مؤسستك وعليك أن تقبله تلقائياً؟

ـ ما هدف التعليم؟ هل هو تعلم الفرد أن يفكر لنفسه؟ أم أن يتعلم شيئاً عملياً؟ أم تراه الاثنين معاً؟